١٥

آل المهلب: أصولهم العمانية وتراثهم الأدبي

د. محمود بن ناصر الصقري
أستاذ اللغة العربية، كلية العلوم والآداب، جامعة نزوى
m.alsaqri@unizwa.edu.om

المُلخّص:

يتناول هذا البحث سيرة القائد العماني المهلّب بن أبي صفرة، وتاريخ أسرته الخالدة، ويسبر أغوار الحقيقة لكل من شكّك في عمانية هذا القائد الكبير وأسرته العريقة، كما يوضّح الجانب الأدبي في بلاط المهالبة خاصة ما يشتمل عليه من الشعر والخطب والرسائل وغيرها. وتقدم الدراسة تعريفًا بالمهلب ابن أبي صفرة وتاريخ نشأته منذ عهد الرسول ﷺ ثم انتساب أسرة البوسعيد الحاكمة في عمان للمهلب بن أبي صفرة.

الكلمات المفتاحية: المهلب. آل المهلب، أدب المهالبة. آل بوسعيد.

المقدمة:

لم يكن الحديث عن المهلب وآل المهلب حديثاً عابراً مدفوعاً بالأهواء، ولكن كان منطلقه بيان ما أشكل على بعضهم، وتوضيح كل الملابسات التي اعتقدها بعضهم في نسب هذا القائد الكبير، وجذوره التاريخية الممتدة بموطنه الأصلي (عُمان)، التي ظلت تلازمه في حياته، وتلازم أبناءه وأحفاده من بعده. والكتابة عن أسرة المهلب وكشف السِّتار عن الصفحات الناصعة التي سطروها في شتى المجالات العسكرية والفكرية والأدبية، هي من الواجب الذي يُحتِّمه حب المعرفة، وكشف كل الغموض عن كل ما قيل ويقال عن هذه الأسرة.

وكان للأدب -بشتى فروعه- في عصر الدولة الأموية بصفة عامة، وعند المهالبة بصفة خاصة بصمة كبيرة على مجريات الحياة وأحداثها، خصوصًا أن هذا العصر شهد اضطرابات كثيرة نتيجة وجود كثير من الأحزاب التي كانت تتنازع على الخلافة، وأثّرت هذه الأحداث جميعها في الحركة الأدبية في الشعر والنثر. وفي خضمّ الأحداث المضطربة في هذه الدولة برز بلاط المهالبة الذي قصده القاصي والداني من الشعراء والأدباء، الذين تسابقوا لمدحهم وعطائهم، بعد أن تسامعوا بكرمهم وسخائهم غير المحدود، وكان له الأثر الكبير في كثرة نتاجهم الأدبي شعرًا ونثرًا.

لم يحظ أدب المهالبة بالاهتمام الكافي لدراسته والتعمق فيه، رغم اشتماله على مجالات عدة غير الشعر مثل الخطب والوصايا، وهي مجالات برع فيها المهلب وآل المهلب في كثير من المواقف والأحداث التي شهدوها في وقائعهم وحروبهم التي خاضوها، وارتبطت بفكرهم وعقيدتهم العسكرية التي تربوا وعاشوا عليها؛ لذا توضح هذه الدراسة جانبًا مهمًا من حياة أسرة المهالبة، وهو الجانب الأدبي، الذي بقي مطمورا ومخفيًا عن جميع الناس قصدًا أو بدون قصد.

تتناول الدراسة بالبحث والتحليل عمانية المهلب بن أبي صفرة، والأدلة الثابتة على عمانيته المرتبطة بالنشأة والمكان، وأقوال الثقات العارفين بالأنساب في ذلك العصر، ثم تحلّل الأدب في بلاط المهالبة في جانبيه الشعري والنثري، وبيان نبذة فاحصة عن الصورة العامة لهذه الجوانب المهمة من الأدب في هذا البلاط.

المهلب بن أبي صفرة:

هو المهلب بن أبي صفرة، واسم أبي صفرة ظالم بن سراق أو سارف بن صبيح بن كندي ابن عمر بن وائل بن الحارث بن العتيك بن الأزد[1]. ولد المهلب بعد عام الفتح سنة تسع للهجرة، أي قبل وفاة الرسول ﷺ بسنتين[2]؛ وذلك يتناسب مع القول إنه عاش ثلاثاً وسبعين سنة، إذ أرّخ لوفاته في عام ٨٢هـ وقيل عام ٨٣هـ،

١) الكلبي، هشام بن محمد السائب: جمهرة النسب، ط١، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م، ص٥٠.

٢) على عكس بعض المغالطات المشبوهة لكتب حديثة صدرت، التي أرَّخت ولادته في العام الأول من الهجرة النبوية الشريفة.

وعدَّ بعض المؤرخين المهلب من الصحابة، وهذا لا يستقيم مع القول إن تاريخ وفاته المذكور، وإنه عاش ثلاثاً وسبعين سنة[١].

كان المهلب بن أبي صفرة فارساً محنَّكا مقداماً من أشجع الناس وأدهاهم، برز في مجال الحرب والقتال، وكان أيضاً سيداً جليلاً نبيلاً، وحكيماً بليغاً، كما كان ميمون النقيبة، حسن السياسة[٢]. وقد تحلّى المهلب بن أبي صفرة بصفات وفضائل، مثل الكرم والجود والإيثار والحلم، والصدق والأمانة والوفاء، وهو إلى جانب ذلك من التابعين لرجال الحديث الثقات، وله رواية عن النبي ﷺ مرسلة: "وكان أجمع الناس للخصال المحمودة للرجال"[٣]. وكذلك روى عن عبدالله بن عمرو بن العاص وابن عمر وسمرة بن جندب والبراء بن عازب وعن من سمع رسول الله ﷺ يقول: (.. إن بيّتم فليكن شعاركم حم لا ينصرون ..)[٤].

انتساب آل سعيد (الأسرة الحاكمة في عُمان) للمهلب بن أبي صُفْرة:

ينتسب آلبوسعيد في عُمان، ومنهم الأسرة المالكة التي حكمت عُمان بعد اليعاربة في العام ١٧٤٤م إلى يومنا هذا، ينتسبون إلى أبي سعيد المهلب بن أبي صُفرة الأزدي العتكي العُماني، وهذا هو المشهور والمعروف؛ عليه تكون هذه القبيلة هي واسطة عقد آل المهلب، وإن تأخر بظهور دولتهم الزمن، فقد ارتبط حاضر مجدها التليد بماضيها المجيد، بما أنجبته من رجال أفذاذ من علماء وأئمة وملوك وفقهاء وأفاضل وأدباء[٥].

وعن انتساب قبيلة (البوسعيد) إلى المهلب بن أبي صُفرة، يقول الشيخ الفقيه سيف بن حمود البطّاشي: "سمعت الشيخ العلاّمة محمد بن شامس البطّاشي يقول إنه سمع الشيخ سعيد بن مسعود البوسعيدي من أهل منح، يقول إنَّ آل

١) البطّاشي، سيف بن حمود: تاريخ المهلب القائد وآل المهلب، د.ت، ص٢٧.

٢) الجاحظ: البيان والتبين، قدّم له وبوّبه وشرحه علي أبو ملحم، ط٢، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت ، ١٩٩٢م، م٣، ص٤١.

٣) نافع توفيق العبود: آل المهلب بن أبي صفرة ودورهم في التاريخ حتى منتصف القرن الرابع الهجري، ط١، مطبعة الجامعة، بغداد، ١٩٧٩م، ص٣٢-ص٤٨.

٤) البطّاشي: تاريخ المهلب القائد وآل المهلب، ص٢٨

٥) المرجع نفسه: ص١٣.

بوسعيد يتصل نسبهم بالمهلب بن أبي صُفرة، والشيخ سعيد هذا رجل عارف نسّابة، وأخبرني الشيخ محمد أيضاً أنَّ المهلب من أهل أدم، ولعل هذا هو الأقرب إلى الصواب، لا ما يذكره بعض المؤرخين من غير العُمانيين الذين يتلقون الأخبار بالإنابة، ويسجلون الحقائق مغلوطة مثل قولهم إنَّ أبا صُفرة كان من جملة السبي وكان صغيراً له ذؤابتان، فهل يستقيم هذا وأبو صُفرة وفد على الخليفة عمر -رضي الله عنه- بالمدينة، وعنده عدد من أولاده أصغرهم المهلب، بل رُوي أنه وفد على النبي ﷺ ولذلك عدّه بعضهم من الصحابة، وكثيراً ما يقع لهم مثل ذلك، فهذا ياقوت الحموي،[1] ذكر في معجمه مُدنًا من عُمان منها (أدم) قال عنها إنها من نواحي عُمان الشمالية، و(بهلا) قال هي بلد على ساحل عُمان، وتوام (البريمي) قال اسم قصبة عُمان مما يلي الساحل، و(صحار) قصبتها مما يلي الجبل، والأمر بعكس ذلك، وقس عليه ما شابهه مما ينسبه النَّسَّابون دون معرفة".

وعن انتساب (آل بوسعيد) إلى المهلب بن أبي صُفرة، يقول الشيخ العلاَّمة محمد بن شامس البطّاشي في هذا المعنى وهو يذكر دولة آل بوسعيد:

أوّل من أسَّس هذي الدولة ... أحمد ذو النجدة ثم الصولة
نجل سعيد ذو العلا بن أحمد ... من آل بُوسعيد قوم نجد
نسبتُهم إلى المهلَّبِ العَلَمْ ... نجل أَبي صُفرة والطَّودِ الأشَمْ
وهو الذي يدعى أبا سعيد ... كذا روى لنا أولو التمجيد
فلا أرى صواب ما قال به ... بعض أولي العلوم في كتابه
حيث غدا ينسبهم إلى خلفْ ... نجل أبي سعيد العالي الشرفْ
فخلف المذكور في التعيين ... كان بحادي العشر من قرون
أيام أملاك بني نبهانا ... المتأخرين في عمانا
والبوسعيديُّون قد تكوَّنوا ... من قبل ذيكُم وقد تبيَّنوا
وانتشروا إلى عُمان من قِدَمْ ... في مَنَح ونزوة وفي أدَمْ
وَسَمَدٍ وغيرها من القُرى ... وذاك واضح يراه من يرى

١) ياقوت الحموي: معجم البلدان، م٢، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م، ص١٨٠

عُمانية المهلب بن أبي صُفرة:

حاول بعضهم التشكيك في نسب المهلب بن أبي صفرة ومكان مولده وتاريخه، بل والتشكيك في عُمانية الرجل التي أكدّها النَّسَّابون العُمانيون وغير العُمانيين، الذين لهم باع طويل في الأنساب.

ونسبة بعضهم للمهلب بن أبي صُفرة بأنه من أهل دبا، فهو مردود عليهم جملة وتفصيلاً، على أنَّ دبا كانت تابعة لعُمان في ذلك الوقت، ودبا في وقتنا الحالي بمسماها القديم تنقسم إلى قسمين: دبا العُمانية، ودبا الفجيرة، فلماذا ردوا نسبة المهلب بن أبي صُفرة إلى دبا الفجيرة وأغفلوا دبا العُمانية، وتناسوا أنَّ (دبا) لم تكن قديماً إلا بمسمى واحد خاضعة لعُمان من كل النواحي.

وهناك حقائق وأدلة تؤكد أنَّ المهلب بن أبي صُفرة كان من عُمان، وهذا ما يؤكده الشيخ سيف البطّاشي، الذي نوّه إليه في معرِض ما قاله عن هذا الموضوع[١]؛ إذ يقول: "وهنا ملاحظتان مهمتان ينبغي الوقوف عندهما والتعقيب عليها: **إحداهما**: ما نُسب من الارتداد إلى أهل دبا من عُمان. **والثانية**: عدّ أبي صُفرة من أهل دبا".

أما ما نُسِبَ إلى أهل (دبا)[٢] من الارتداد فإنَّ أصحابنا من عُمان لم يثبت ذلك عندهم مع قرب الدار وقرب العهد، ولم يذكروا هذه القضية على الصفة التي ذكرها غيرهم، بل ينفون ارتداد أهل دبا، وما كانت تلك الشهرة التي ألصقت بهم وتلقفها مؤرخو قومنا من بعيد، ما هي إلا نزعة اختلفت فيها المفاهيم، كما قال الشيخ العلامة سالم بن حمود السيابي في تاريخه، وأنَّ المُصَدِّق اعتمد على شبهة فظنَّها حقاً، فأساء، وربما وقع مثل ذلك من أهل الجهل وعوام المسلمين بغير قصد الارتداد.

وملخَّص قضية (دبا) كما هي في الكتب العُمانية أنَّ أبا بكر الصديق -رضي الله

١) البطّاشي: تاريخ المهلب القائد وآل المهلب، ص١٨.

٢) دبا: تقع على بحر عُمان، وكان الجلندى بن المستكبر حاكم عُمان يعشرهم، وكانت قصبة عُمان قديماً غير أنها ضعفت بعد الإسلام، وطفت عليها صُحار في الأهمية الإدارية والتجارية. ينظر: المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة أحوال الأقاليم، وضع مقدمته وهوامشه وفهرسه محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٧، ص٧٤-ص٨٨.

عنه- بعث حذيفة بن محصن الغلفاني لأخذ الصدقة من أهل عُمان، فلما جاء (دبا) لأخذ الصدقة منهم، وهم مُقرُّون بالحكم كله، أعطوه الصدقة جميعاً، لم يمنعها منهم أحد، غيرَ أنَّ امرأة منهم شاجرت بعض المصدقين، وهي مُقرَّة غير مُنكرة بحق الصدقة، فزعمت أنه استوفى حقه جميعاً، وزعم هو أنه بقي عليها بقية، فتنازعا في ذلك؛ فقرعها قرعة؛ فاستغاثت ببعض أهلها فأغاثها، وأقبلوا على الذي قرعها ومن معه من المصدقين؛ فتواقعوا وتنادوا عند ذلك يا آل بني فلان، وقيل إنَّ المرأة كانت عليها فريضة شاة مُسنة فأعطتهم عتوداً أو عناقاً مكان الشاة المسنة، فأبوا أن يقبلوها، فأخذوا ما أرادوا، فنادت يا آل مالك، وكانت دعوة جاهلية، يقال إنَّ من دعا بها حل دمه حين يدعو بها أو يتوب، فاقتتلوا ما شاء الله أنْ يقتتلوا، ثم إن المصدقين غلبوا وظهروا عليهم، وجاء حذيفة فقبض عليهم وفيهم ذرية من لم يقاتلهم من النساء والولدان، وذرية من كان قد غاب أو كان قد مات وهو مسلم، ونساؤه من غير إنكار منهم بشيء من التنزيل ولا امتناع منهم بما قبلهم من الحق، فلم يبق أحد منهم قدر عليه إلا سباه، ومضى بهم إلى المدينة بدعوى الارتداد الذي فهمه من تداعيهم لا غير، وذلك في آخر خلافة أبي بكر، وقيل أول خلافة عُمر -رضي الله عنهما.

ولما تحقق الخليفة الثاني أمر أهل (دبا) وبما سمعه منهم ومن رؤسائهم الذين وفدوا إلى المدينة، غضب على العامل الذي سباهم، وقال له: "والله لو علمتك سبيتهم بدين دوني تقطع فيهم لقطّعتك طوائف، ثم بعثت إلى كل مصر منك بطائفة". وقد حمله الغضب على هذا القول، ثم نقض -رضي الله عنه- أمر أهل (دبا) وأبطل الحكم الذي حكم به المصدق فيهم وردَّهم إلى منازلهم بعُمان، وردَّ عليهم أموالهم التي ظنَّها المصدق غنيمة، وعَّوضهم بما أصيب منهم وما أصابهم من البلاء بثلاث مائة"، وإلى ذلك أشار العلّامة نورالدين السالمي - رحمه الله- بقوله:

تأوَّل السابي لهم يوم دبا وأنكر الفاروق ذاك المذهبا

وقال الإمام نورالدين السالمي في تحفة الأعيان بعد أن نقل كلام الشيخ خلف

بن زياد[١]: "هذا حاصلُ قضية دبا عند المسلمين كما هي في الكتب العُمانية، وهم أعرف بحالهم وأخبر بقومهم، ولا يصح ما ذكره ابن الأثير في كامله[٢]؛ إذ قال: وأما عُمان فإنه نبغ بها ذو التاج لقيط بن مالك الأزدي، وكان يسمى في الجاهلية الجلندى، وادعى بمثل ما ادعى من تنبأ، وغلب على عُمان مرتدًا". وقال العلَّامة نورالدين السالمي بعد ذلك انتهى كلام ابن الأثير، وهذا كله باطل. وكفى بقول هذا العلامة الجليل حجة على بطلان قول ابن الأثير، ومن قال بمثل قول هذه القضية[٣]

وقال الشيخ خلف أيضاً في سيرته: ثم نقض عمر - رضي الله عنه - أمر أهل (دبا) وردهم إلى منازلهم بأموالهم، إلا من استخفى بشيء منهم خيانة وأجاز المسلمين بما أصيب منهم وأصابهم من البلاء بثلاث مائة، وأخرج لهم ذلك من مال الله. فلو كان يرى سبيهم وغنيمتهم لم يردهم بأموالهم إلى ديارهم وفيها خمس الله، ولم يكن ليجعل بما أجاز به المسلمين فيما أصيبوا به وأصيب منهم جائزة منه يخرجها لهم من مال الله. ولو كان يحل سبي أهل القبلة اليوم لكان سبي أهل (دبا) حراماً، حيث سبوا جميعاً من أجل قائل منهم، وفيهم من لم ينكر الصدقة، وفيهم ذرية من قد مات، وذرية من هو غائب وهو مسلم. وبذلك تتضح الحجة على بطلان دعوى الردة المنسوبة إلى أهل (دبا) أو كما يسميها بعضهم - جهلاً وعدواناً - ردة أهل عُمان، إذ أدخلوهم في جملة المرتدين مثل قوم مسيلمة وسجاح وطليحة، وذلك كله لا أصل له.

فأنتَ من الغوائل حين تُرمى ومن ذمِّ الرِّجـــال بمنتـزاحِ

ويدل لذلك أيضاً أنَّ بعض أشراف عُمان في ذلك الوقت، وهم سبيعة بن عراك، والعلا بن سعد الخمامي، والحارث بن كلثوم الحديدي ومن معهم من قومهم، ساروا إلى المدينة ليخبروا الخليفة بما وقع من المصدق على أهل (دبا)، فقالوا: يا

١) نور الدين عبدالله بن حميد السالمي: تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، المطبعة السفلية، مصر، ١٣٤٧هـ، ص٧٠.
٢) ابن الأثير، الكامل، ج٤
٣) البطّاشي: تاريخ المهلب القائد وآل المهلب، ص٢٠.

خليفة رسول الله، إنَّا على إسلامنا لم ننتقل عنه، ولم نمنع زكاة ولم ننزع يداً من طاعة، ولم نرجع عن دين، وقد عجل علينا عاملك، وكففنا أيدينا إلى أن أتيناك. فهذا القول من هؤلاء الرؤساء أمام الخليفة لم يترك مقالاً لقائل يطعن به على أهل (دبا)، ويصفهم بالارتداد، فهم على ما يتبادر من قضيتهم لم ينتقلوا عن الإسلام كما ظن بهم، ثم إن في قولهم للخليفة: (قد عجل علينا عاملك، وكففنا أيدينا إلى أن أتيناك) يدل على أنَّ أهل (دبا)، وبعبارة أوضح (أهل عُمان)، قد تأدبوا مع عامل الخليفة ومن معه، وكفوا أيديهم وهم في دارهم ينظرون إلى أخواتهم ونسائهم يُساقون ويُحملون وهم يعرفون من أنفسهم أنهم لم يرجعوا عن الإسلام، فصبروا على ذلك حتى أتاهم الفرج على يد الفاروق، فردهم إلى أوطانهم بأموالهم. ويدل له ما روي أنَّ عمراً قال لأبي بكر - رضي الله عنهما - لما أنزلهم في دار رملة بنت الحارث وهو يريد أن يقتل المقاتلة: "يا خليفة رسول الله، قومٌ مؤمنون، إنما شحوا على أموالهم"، فقال: "انطلقوا إلى أي البلاد شئتم، وأنتم قومٌ أحرار". وسواء صحَّت هذه الرواية أم التي قبلها فمؤداهما واحد[١].

وفيما يتعلق بقولهم إنَّ أبا صُفرة من أهل (دبا)، وإنَّ أبا صُفرة كان في جملة السبي المحمولين إلى المدينة، "هو قولٌ ظاهر البطلان، فقد ردَّه ابن قتيبة[٢] على قائله الواقدي[٣] في قضية سبي أبي صُفرة المزعوم، ويردَّه ما نقلناه من قول بعض العلماء العمانيين الذين هم أعرف ببلدهم، والذين لم يذكروا قضية (دبا) على الصفة التي ذكرها غيرهم؛ بل ذكروها بعكس ذلك، إذ وصفوهم بالثبات على الإسلام، وأنهم لم يرجعوا عنه، وكذا لم يذكروا أبا صُفرة أنه من أهل (دبا) وهم أعرف برجالهم، لاسيما مع شهرة أبي صُفرة ورئاسته في قومه بني عمران. وكذا العوتبي الصحاري، وهو من أقدم العلماء الذين ألَّفوا في أنساب أهل عُمان وأخبارهم، قد ذكر قضية (دبا) على الوجه الصحيح، ولم يذكر أبا صُفرة أنه من أهل (دبا)[٤]، ولو كان منهم لذكره فيهم، ولا يبعد أنه من داخلية عُمان، وقد تقدم

١) البطّاشي: تاريخ المهلب القائد وآل المهلب، ص٢٢.

٢) ابن قتيبة: المعارف، حققه وقدم له ثروت عكاشة، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١م، ص٣٩٠.

٣) الواقدي، محمد بن عمر: فتوح الشام، تحقيق:عمر أبو النصر، بيروت، ١٩٦٦م، ص٩٠.

٤) ينظر: العوتبي، أبو المنذر سلمة بن مسلم: الأنساب، تحقيق: محمد إحسان النص، وزارة التراث والثقافة، مسقط، سلطنة عُمان، ط٤، سنة: ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ج٢، ص١٣١.

ما قيل عن ولده المهلب إنه من أهل أدم، فالكلام فيه كالكلام في ولده[١].

ويؤكد صاحب الأغاني قول بعض العلماء العمانيين على عُمانية المهلب بن أبي صُفرة، فيقول: "وفد ابن الجلندى في الأزد، أزد عُمان، فكان فيمن وفد منهم أبو صُفرة فدخل إلى عمر - رضي الله عنه - مع ابن الجلندى"[٢]. ومن الأدلَّة الكثيرة على أن المهلب بن أبي صُفرة كان عُمانياً من أهل عُمان ما قاله الطبري وهو يذكر حرب المهلب: "وثابت إليه سرية من عُمان"[٣]، ولو كان غير ذلك لما ذكر الطبري ارتباط المهلب ببلده عُمان حتى قتاله وجهاده. وروي أن الحجاج بن يوسف الثقفي قال ليزيد بن المهلب: "يا مزوني" - أي يا عُماني؛ لأن عُمان كانت تسمى مزوناً، ومعلوم أنَّ الحجاج بن يوسف الثقفي من أعرف الناس بالأنساب والأصول في ذلك الوقت. وسمع مسلمة بن عبدالملك رجلاً من أهل الشام يقول: "ماذا لقينا من ابن حائك كندة، يعني ابن الأشعث - ثم أنساناه هذا المزوني - يعني يزيد بن المهلب"، وذلك بعد وقعة العقر ببابل وقتل آل المهلب، ولما سمع مسلمة كلام الرجل قال له: "اسكت فوالله لولا حسد العرب له ومشي فارس قريش إليه ما كان خليفتك غيره"[٤]. وقال جرير:

وأطفأت نيران المزون وأهلها ... وقد حاولوها فتنة أنْ تسعَّرا

فلم تُبقِ منهم رايةً يرفعونها ... ولم تُبقِ من آل المهلب عسكرا[٥]

وقال أيضاً :

وآلُ المُهلَّب فرَّطوا في دينهم ... وطغوا كما فَعَلَتْ ثمودُ فبارُوا

هل تذكرون إذِ الحِساسُ طعامكُم ... وإذ الصَّفاوةُ أرضُكُم وصحارُ

١) ينظر: البطّاشي: تاريخ المهلب القائد وآل المهلب، ص٢٢.

٢) الأصفهاني، أبو الفرج: الاغاني، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢م، ج٢، ص٧٦.

٣) الطبري، محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧، ج٦، ص١٧١.

٤) البطّاشي: تاريخ المهلب القائد وآل المهلب، ص٩.

٥) شرح ديوان جرير، قدم له وشرحه، تاج الدين شلق، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٤م، ط٢، ص٢٦٣.

ودلالة الأبيات السابقة واضحة في إشارة جرير بقوله "المزون"، و"صحار" في معرِض هجائه لآل المهلب، وبيان موطنهم ونسبهم الحقيقي، ولو كان غير ذلك أيضاً لذكره جرير صراحة، وهو العارف بكل مفردات العربية وأصولها. ولما أراد عمر بن عبدالله الأنصاري عامل عمر بن عبدالعزيز - رضي الله عنه - على عُمان الخروج من عُمان بعد موت عمر، قال لزياد بن المهلب: "هذه البلاد بلاد قومك فشأنك بها". وقال ابن خلكان[٦]: "قال محمد واسع، لما جاء نعي يزيد ابن المهلب أتتني باكية عُمانية، تندب لي قتلى المهلب. ولما بلغ المأمون هجاء أبي عينية لنزار نذر دمه فهرب من البصرة إلى عُمان، فلم يزل متوارياً في الأزد حتى مات المأمون. فقد هجا الشاعر أبو عيينة المهلبي في أيام المأمون نزاراً، وفضّل عليها قحطان، فردَّ عليه أحد الشعراء، وهو ابن زعبل يهجوه:

أعبد من عبيد عُمـــا ... ن عاب مناقب السبطِ

وتهجو الغرَّ من مُضَرٍ ... كفى هذا مـن الشَّططِ

تيمَّـم فـي مُقيّـــرةٍ ... مسيراً غيـــر معتبِطِ"[٧]

فيتضح، من النصوص السابقة، أنَّ آل المهلب عُمانيون وإن نأت بهم الديار، وابتعد كثير منهم عن وطنهم الأصلي، وبقي منهم في عُمان، ولا يمكن لأحد أن ينازع في ذلك إلا جاهل بالتاريخ، أو من يتلقى الأخبار من بعيد، ويكتب كل ما سمعه بدون تمحيص أو تثبّت، وبذلك يكون قد تنكر للتاريخ وطمس هويته بقلب الحقائق.

الأدب في بلاط المهالبـــة:

كان للفظة الأدب عند العرب دلالات كثيرة منذ العصر الجاهلي امتدادًا للعصور اللاحقة، وقد كان الاستعمال الأول لهذه اللفظة عند العرب في كلامهم شعرًا ونثرًا

٦) ابن خلكان: وفيات الأعيان،ج٦.

٧) الأصفهاني: الأغاني، ج٢.

بمعنى الدعوة إلى الطعام، يقولون: أدبَ القوم يأدبهم أدبًا[١]. وظلت لفظة الأدب بهذا المعنى، ولكنها في الوقت نفسه تحمل معنى آخر وهو معنى تعليمي، ارتبطت ببعض المؤدبين الذين كانوا يعلمون أولاد الخلفاء خصوصًا في العصر الأموي، وأتاح لكلمة الأدب أن تكون مقابلة لكلمة العلم وما يتصل بها[٢]. وكانت المؤثرات السياسية في الدولة الأموية من أبرز المؤثرات في الحياة الأدبية، وأسس الأمويون ملكًا وراثيًا يقوم على تداول الحكم فيما بينهم دون سواهم، وقمعوا كل معارضة تنزع إلى سلبهم ملكهم. وقد قابل معارضو بني أمية استئثارهم بالحكم بمعارضة عنيفة من كل الطوائف، ومنهم الخوارج الذين كانوا يريدون الخلافة شورية، لا تكون وقفًا على قريش وحدها، بل يتولاها كل من تتوافر فيه المؤهلات المطلوبة ولو كان عبدًا حبشيًا. ومن معارضي الأمويين، الشيعة الذين كانوا يرون آل البيت أحق بتولي الأمر من جميع بطون قريش ومن جميع المسلمين، ويجعلون الإمامة أمرًا إلهيا. على أن حزبي الخوارج والشيعة ما لبثا أن انقسما إلى فرق تختلف فيما بينها في طائفة من المعتقدات، فانقسم الخوارج إلى أزارقة -وهم من أشدهم تطرفًا- وإباضية[٣]، ونجدات وصفرية، وانقسم الشيعة إلى إمامية اثنى عشرية، وإمامية سبعية (إسماعيلية)، وكيسانية، وزيدية. وقام كل من الخوارج والشيعة بثورات متصلة طوال العصر الأموي.

ومن أهم ثورات الخوارج التي تمخّض عنها عصر بني أمية، ثورات الخوارج الأزارقة، استطاع فيها القائد المحنك المهلب بن أبي صفرة أن يبعد خطرهم ويصد حملاتهم، وأن يقضي عليهم آخر الأمر. وكان لثورة الخوارج وتصدي آل المهلب لها بإيعاز من الخلافة الأموية، الأثر الكبير في إثراء الأدب في العصر الأموي بصفة عامة، وفي بلاط المهالبة بصفة خاصة. وثمة عامل كان له أقوى الأثر

١) ينظر: معجم الصحاح، مادة أدب .

٢) ضيف، شوقي: تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) ط١، دار المعارف، ص٨.

٣) وقع الكثير من المؤرخين في خطأ تاريخي بتصنيفهم الإباضية ضمن الخوارج، وهم منهم براء، إذ لا يلتقي الإباضية مع الخوارج إلا في مسألة خروجهم عن الإمام علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه- في معركة صفين الشهيرة. والوقائع التاريخية تشهد أن الإباضية أنفسهم حاربوا الخوارج، ولم يخرجوا معهم في قتال أو سبي أو سفك دماء أو تكفير للمسلمين؛ حتى أطلق عليهم "القعدة" لقعودهم وعدم خروجهم مع الخوارج. للاستزادة في هذا الجانب، ينظر: السابعي، ناصر بن سليمان: الخوارج والحقيقة الغائبة. ط١، مكتبة الجيل الواعد، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

في الحياة الأدبية، وهو بلاط المهالبة، وموقفه من الشعراء والخطباء، فقد دأب المهلب وآل المهلب على إكرام الشعراء، فأغدقوا عليهم الأموال بسخاء، وشجعوا الشعراء والخطباء في مجالسهم، وفي محافلهم وميادين المعارك التي يشاركون فيها، بالإضافة إلى إغداقهم الأموال والهدايا على كل من طرق بابهم من الشعراء وبلغاء العرب، فتسابقوا إلى بلاطهم رغبة في نيل عطاياهم السخية.

وارتبط الأدب في بلاط المهالبة بكل ما يرتبط من أشعار أو خطب قالها المهلب وآل المهلب في مجالسهم وحروبهم التي خاضوها، بالإضافة إلى كل شعر ونثر قيل فيهم مدحًا أو هجاءً أو إشارة إلى شيء ما يتعلق بهم، سواء كان ذلك فيما يرتبط بنسبهم أم ما كان له ارتباط بذكر مناقبهم وخصالهم وصفاتهم. وساعد السخاء الذي كان عليه المهالبة الكثير من الشعراء على أن يفدوا عليهم؛ طمعًا في كرمهم وعطاياهم وذكرهم الذي ملأ الآفاق، كما قال قبيصة المهلبي: وهب مخلد ابن يزيد من لدن خروجه من (مرو) إلى أن ورد دمشق ألف ألف درهم. وكان مخلد سيِّداً كريماً، امتدحه كثير من الشعراء، ومنهم الكميت بن زيد الأسدي، إذ يقول فيه:

قاد الجيوشَ لخمس عشرةَ حجة ولداتـهُ عن ذاكَ في أشغـالِ

فغَـدَتْ بهم همَّـاتهم وسَمَتْ بهِ هِممُ الملوكِ وسورة الأبطـالِ

فكأنما عـاش المهـلّــب بينَهُـم بِأغـرّ قاسَ مثـالهُ بمثـالِ[1]

وكان المهلب بن أبي صفرة شاعرًا مُجيدًا، له كثير من الأشعار التي قالها في ميادين الحروب والطعان، ومن ذلك قوله:

لئن فقئت عيني لقد بقيت نفسي وفيها بحمد الله عن تلك ما يُنسي

إذا جاء أمرُ الله أعيا خيـــولنا ولا بُدّ أن تعمى العيون لدى الرمسِ[2]

١) الأصفهاني: الأغاني، ج١٦، ص٤٤٠.

٢) الحنفي، علاء الدين مغلطاي بن قليج بن عبدالله البكجري: إكمال تهذيب الكمال، تحقيق:عادل بن محمد وأسامة بن إبراهيم، الفاروق، ط١، الحديثة للطباعة والنشر، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ج١١، ص٣٨٩.

وكان لكعب بن معدان الأشقري -شاعر بلاط المهالبة- دور كبير في إثراء حركة الشعر والنثر في هذا البلاط، خصوصًا بعد ذهابه إلى الحجاج بن يوسف الثقفي مبشّرًا بانتصار المهلب وجيشه على الأزارقة والقضاء عليهم بجيرفت، فلما دخل على الحجاج أنشده القصيدة التي يقول فيها:

يا حفص إني عداني عنكُمُ السَّفرُ ... وقد أَرِقْتُ فآذى عينيَ السَّهَرُ

علِّقتَ يا كعب بعد الشَّيبِ غانية ... والشيبُ فيه عن الأهواء مزدجرُ

أممسكٌ أنت عنها بالذي عهدت ... أم حبلها إذ نأتك اليوم منبتِرُ

علِّقت خوداً بأعلى الطَّفِ منزلها ... في غرفةٍ دونها الأبواب والحجَرُ

درماً مناكبها ريَّاً مآكمها ... تكاد إذ نهضتْ للمشي تنبتِرُ

وقد تركت بشطِّ الزابيين لها ... داراً بها يَسعدُ البادونَ والحضرُ

واخترت داراً بها حيٌّ أُسَرُّ بهم ... ما زال فيهم لمن يختارهم خِيَرُ

لما نأتْ بي بلادي سِرتُ منتجعاً ... أرجو نوالك لما مسَّني الضَّرَرُ

لولا المهلَّب ما زرنا بلادهُمُ ... ما دامت الأرض فيها الماء والشَّجَرُ[١]

"فلما سمع الحجَّاج من كعب هذه القصيدة ضحك وقال له: إنَّك لمنصف يا كعب. ثم قال له: فكيف كان بنو المهلب؟ قال: حماة للحريم نهاراً، وفرساناً بالليل أيقاظاً. قال: أين السماع من العيان؟ قال: السماع دون العيان، قال: صفهم رجلاً رجلاً، قال: المغيرة فارسهم وسيِّدهم، ناراً ذاكية وصعدة عالية، وكفى بيزيد فارساً شجاعاً، ليث غاب، وبحرُ جَمٍّ عُباب، وجوادهم قبيصة، ليث المغازي وحامي الذِّمار، ولا يستحي الشجاع أنْ يفرَّ من مدرك، وكيف لا يفرّ من الموت الحاضر والأسد الخادر، وعبدالملك سمٌّ ناقع وسيفٌ قاطِع، وحبيب الموت الزعاف إنما هو طود شامخ وفخر باذِخ، وأبو عيينة البطل الهمام والسيف الحسام، وكفاك بالمفضل

١) ديوان كعب بن معدان الأشقري، ص٥٣.

نجدة ليث هدَّار وبحر موَّار، ومحمد ليث غاب وحسام ضراب. قال: فأيُّهم أفضل؟ قال: هم كالحلقة المفرغة، لا يدري أين طرفاها. قال: فكيف جماعة الناس؟ قال: على أحسن حال، أدركوا ما رجوا، وآمنوا مما خافوا، وأرضاهم العدل، وأغناهم النفل. قال: فكيف رضاهم عن المهلب؟ قال: أحسن رضا، وكيف لا يكونون كذلك وهم لا يعدمون منه رضا الوالد، ولا يعدم منهم برّ الولد. قال: فكيف فاتكم قطري بن الفجاءة؟ قال: كدناهُ فتحوَّل عن منزلة، وظنَّ أنه قد كادنا. قال: فهلا تبعتموه، قال: حال الليل بيننا وبينه، فكان التحرُّز إلى أنْ يقع العيان ويعلم الأمر، وما يصنع أحزم، وكان الجد عندنا آثر من القلّ. فقال الحجَّاج: المهلب كان أعلم بك حيث بعثك، وأمر له بعشرة آلاف درهم، وحمله على فرس، وأوفده على عبدالملك بن مروان فأمر له بعشرة آلاف أخرى"[1].

ولما سمع الحجَّاج بن يوسف الثقفي ما سمع من كعب الأشقري من الثناء على المهلب وأولاده، استحسن ذلك منه، فكتب إلى المهلب يشكره ويأمره أن يولِّي كرمان من يثق به، ويجعل فيها من يحميها، ويقدم عليه في أسرع وقت في آل بيته وفرسانه، ولا يتخلف منهم أحد. فاستعمل المهلب على كرمان يزيداً ابنه، وسار هو إلى الحجَّاج بأهله وفرسانه، فلما قدم عليه بالبصرة أكرمه وأجلسه إلى جانبه، وقال: "يا أهل العراق، أنتم عبيد المهلب"[2]. وكان رد كعب على الحجاج خطبة بليغة تبين المناقب والصفات التي كان عليها المهلب وآل المهلب، خصوصًا في ميادين الحرب والطعان.

وكان أيضا للخطب التي برع فيها آل المهلب في أثناء حروبهم وغزواتهم الأثر الكبير في إثراء حركة الأدب النثرية في بلاط المهالبة. وكان بعض هذه الخطب وسيلة استمالة للناس، وتحريكهم على خصوم آل المهلب في كثير من المواقف الحربية التي كانت للمهلب وآل المهلب ضد الأزارقة، أو بين آل المهلب والدولة الأموية. ومن ذلك خطبة المهلب في البصرة، التي وصل إليها فنادى في الناس

١) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٣، ص١٨٥ - ١٨٦ .

٢) النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د.ت، ج٢١، ص١٥٨ .

فاجتمعوا وارتقى المنبر، فخطب:

"أيها الناس، إنه قد غشيكم عدو جاحد، يسفك دماءكم، وينهب أموالكم، فإن أعطيتموني خصالاً أسألكموها قمتُ لكم بحربهم، واستعنت بالله عليهم، وإلا كنتُ كواحد منكم لمن تجتمعون عليه في أمركم. قالوا: وما الذي تريد؟ قال: أنتخب منكم أوساطكم لا الغني المثقل، ولا السبروت المخف، وعلى أنَّ لي ما غلبت من الأرض، ولا أخالف فيما أدبِّر، فناداه الناس: لك ذلك، وقد رضينا به"[١].

وكانت بعض الخطب تقوم على النصائح والمواعظ، خاصة في الأمور الحربية، كما في نصائح المهلب لأبنائه: "لا تبدؤوهم بقتال حتى يبدؤوكم فيبغوا عليكم، فإنهم إذا بغوا نُصِرتُم عليهم". وكان ينهاهم عن مطاردتهم إذا ولَّوا الأدبار منهزمين، وقد نهى ابنه المغيرة عن مطاردتهم وهم جرحى بقوله: "فإنَّ الكلب إذا جرحته عقر"[٢].

الخاتمة:

إنّ عمانية آل المهلب حقيقة لا يمكن إنكارها أو الشك فيها؛ فالنصوص التاريخية السليمة، والأدلة القطعية، والأقوال المؤكدة من السلف سندًا ونصًا، تؤكد على ذلك وتثبته، وهذه الحقيقة لا يمكن إغفالها أو إنكارها، خصوصًا من العارفين والمؤرخين الذين لديهم باع طويل في توثيق الحقائق التاريخية وثبتها بكل دقة وأمانة.

وكما أن الشهرة التي اكتسبها المهلب وآل المهلب على مستوى العالم الإسلامي نتيجة إسهاماتهم الحضارية والعسكرية والأدبية، تدل على المكانة الاجتماعية التي كانوا يتمتعون بها في عمان، خصوصًا في عهد أبي صفرة قبل انتقالهم إلى مركز الخلافة الإسلامية؛ إذ بدأت انطلاقتهم القيادية الفاعلة والمؤثرة، خصوصا في الجانب العسكري والسياسي.

١) الدنيوري، أبو حنيفة أحمد بن أبي داود: الأخبار الطوال، تحقيق: عبد المنعم عامر، منشورات المكتبة الحيدرية، طهران، د.ت، ص٢٧١-ص٢٧٢.

٢) ابن أعثم، أحمد. كتاب الفتوح، تحقيق: سهيل زكاو، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٩٩٢، ص٢١٣.

وكان بلاط المهالبة مهوى الشعراء، ومقصد الخطباء والبلغاء، رغبة وطمعًا في نيل عطاياهم والتقرب منهم؛ فكان لذلك الأثر الأكبر في إثراء الحركة الأدبية في بلاط المهالبة، إضافة إلى القصائد والخطب التي قالوها ارتباطًا بالأحداث السياسية والعسكرية التي كان المهالبة في معتركها، ورأس الحربة في كل أحداثها، وقادوها بحنكتهم ودهائهم حتى وصلوا بها إلى الغاية التي كانوا يأملونها، حتى قرب نهايتهم وتفرّق شملهم، وهزيمتهم في عهد الخليفة الأموي يزيد بن عبدالملك.

قائمة المصادر والمراجع:

١- ابن أعثم، أحمد. كتاب الفتوح، تحقيق: سهيل زكاو، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٩٩٢.

٢- ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (العبر وديوان المبتدأ والخبر)، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ج٣، ١٩٨٦م.

٣- ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤.

٤- ابن قتيبة: المعارف، حققه وقدم له ثروت عكاشه، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١م.

٥- الأصفهاني، أبو الفرج: الأغاني، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢م.

٦- الجاحظ: البيان والتبين، قدم له وبوبه وشرحه علي أبو ملحم، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط٢، م٣، ١٩٩٢م.

٧- الحموي، ياقوت: معجم البلدان، م٢، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م.

٨- الحنفي، علا الدين مغلطاي بن قليج بن عبدالله البكجري: إكمال تهذيب الكمال، تحقيق: عادل بن محمد وأسامه بن ابراهيم، ط١، الناشر: الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٩- الدنيوري، أبو حنيفة أحمد بن أبي داود: الأخبار الطوال، تحقيق: عبدالمنعم عامر، منشورات المكتبة الحيدرية، طهران، د.ت.

١٠-ديوان كعب بن معدان الأشقري،

١١-السالمي، نور الدين عبدالله بن حميد: تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، المطبعة السفلية، مصر، ١٣٤٧هـ .

١٢-سيف بن حمود البطّاشي: تاريخ المهلب القائد وآل المهلب، (د.ت).

١٣-شرح ديوان جرير، قدم له وشرحه، تاج الدين شلق، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٩٤م.

١٤-ضيف، شوقي: تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) ، دار المعارف، ط١.

١٥-الطبري، محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧.

١٦-العبود، نافع توفيق: آل المهلب بن أبي صفرة ودورهم في التاريخ حتى منتصف القرن الرابع الهجري، ط١، مطبعة الجامعة، بغداد، ١٩٧٩م.

١٧-المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٣.

١٨-النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ج٢١، د.ت.

١٩-هشام بن محمد السائب الكلبي: جمهرة النسب، مكتبة النهضة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨١م.

٢٠-الواقدي، محمد بن عمر: فتوح الشام، تحقيق: عمر أبو النصر، بيروت، ١٩٦٦م.